غزوة خيبر

وفي بقية المحرَّم من سنة سبع للهجرة خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر، قال ابن إسحاق، واستخلف على المدينة «سباع بن عُرْفُطَة الغفاري» وقال ابن هشام: «نُمَيْلَة بن عبد الله الليثي».

وأخرج مسلم في صحيحه عن أنس قال: كنت ردفَ أبي طلحة يوم خيبر، وقدمي تمسُّ قدم رسول الله ﷺ، قال: فأتيناهم حين بزغت الشمس، وقد أخرجوا مواشيهم، وخرجوا بفئوسهم ومكاتلهم ومرورهم، فقالوا: «محمد» والخميسُ، قال: وقال رسول الله ﷺ: (خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)، قال: فَهَزَمهمُ الله تعالى. رقم (١٢١/ ١٣٦٥).

وأخرج مسلم في صحيحه عن سلمة بن الأكوع، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، فتسيَّرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تُسْمِعُنا من هُنَيَّاتك[1]؟ وكان «عامرٌ» رجلاً شاعراً، فنزل يحدو[2] بالقوم، يقول:

اللهمَّ! لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فاغفر فداء لك ما اقتضينا ... وثَبِّتِ الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينة علينا ... إنَّا إذا صيح بنا أتينا
وبالصياح عَوَّلُوا[3] علينا

---

(١) هُنَيَّاتِك: وفي بعض النسخ: هُنَيْهَاتِكَ: أي: أراجيزك.
(٢) يحدو: يحث الإبل على السير بحُدائه.
(٣) عَوَّلوا: استغاثوا بنا واستفزعونا للقتال.

فقال رسول الله ﷺ: (من هذا السائق؟) قالوا: عامرٌ، قال: (يرحمه الله)، فقال رجل من القوم: وَجَبَتْ، يا رسول الله! لولا أمتعتنا به، قال: فأتينا خيبر، فحاصرناهم حتى أصابتنا مخمصةٌ[١] شديدة، ثم قال: (إن الله فتحها عليكم).

قال: فلما أمسى الناس مساء اليوم الذي فتحت عليهم، أوقدوا نيراناً كثيرة، فقال رسول الله ﷺ: (ما هذه النيران؟ على أي شيء توقدون؟) فقالوا: على لحم، قال: (أيُّ لحم؟) قالوا: لحمُ حُمُر الإنسية، فقال رسول الله ﷺ: (أهريقوها واكسروها) فقال رجل: أو يُهْريقوها ويغسلوها؟ فقال: (أو ذاك)، قال: فلما تصافَّ القوم، كان سيف «عامر» فيه قِصَرٌ، فتناول به ساق يهودي ليضربه، ويرجع ذُباب سيفه، فأصاب ركبة «عامر» فمات منه.

قال: فلما قفلوا قال سلمة: وهو آخذ بيدي، قال: فلما رآني رسول الله ﷺ ساكتاً قال: (مالك؟)، قلت له: فداك أبي وأمي! زعموا أن «عامراً» حَبِطَ عمله، قال: (مَنْ قاله؟) قلت: فلانٌ وفلانٌ وأُسَيْدُ بنُ حُضَيْر الأنصاري، فقال: (كذب من قاله، إنَّ له لأجران)[٢]، وجمع بين إصبعيه، (إنه لجاهدٌ مجاهدٌ)[٣]، قَلَّ عربي مشى[٤] بها مثلَه). رقم (١٨٠٢/١٢٣).

قال ابن إسحاق: [حدثني من لا أتهم عن عطاء بن أبي مروان الأسلمي، عن أبيه، عن أبي مُعَتِّب بن عمرو: أن رسول الله ﷺ لما أشرف على خيبر قال لأصحابه، وأنا فيهم: (قفوا) ثم قال: (اللَّهم! ربَّ السماوات وما أظْلَلْن، وربَّ الأرضين وما أقْلَلْن، وربَّ الشياطين وما أضْلَلْن، وربَّ الرياح وما أذْرَيْن، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير

(١) مخمصة: جوع شديد.
(٢) إن له لأجران: هكذا في معظم النسخ، وفي بعضها: لأجرين، وهما صحيحان، لكن الثاني هو الأشهر الأفصح، والأول لغة أربع قبائل من العرب.
(٣) لجاهد مجاهد: الجاهد الجاد في طاعة الله، والمجاهد هو المجاهد في سبيل الله.
(٤) مَشَى بها: مشى بالأرض أو في الحرب.

أهلها، وخير مافيها، ونعوذ بك من شرها، وشر أهلها، وشر مافيها، أقدموا باسم الله).

قال: وكان يقولها عليه السلام لكل قرية دخلها][1].

ولما سمعت غطفان بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر، جمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه، ولما ساروا مرحلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهاليهم حِسًّا، ظنوا أنهم مدركون، فانقلبوا على أعقابهم، وأقاموا في أموالهم وأهليهم، وخَلَّوْا بين رسول الله ﷺ وخيبر، وبدأ رسول الله ﷺ بالأموال يأخذها مالاً مالاً، والحصون يفتحها حصناً حصناً، وكان أول حصن حازه حصن (ناعم)، وألقيت منه على «محمود بن مسلمة» رحًى فقتلته، ثم (القَمُوص) حصن ابن أبي الحُقَيْق، فأصاب سبايا بينهن «صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب» وابنتي عم لها، وسأله «دحية الكلبي» صفية، فلما اصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، أعطاه ابنتي عمها.

وجاءَ بَنُو سَهْم من أسلم النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله! والله! لقد جُهدنا، وما بأيدينا شيء، فلم يجدوا عنده ما يعطيهم إياه، فقال النبي ﷺ: (اللَّهم! إنك قد عرفت حالهم، وأنْ ليست بهم قوة، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها، وأكثرها طعاماً وودكاً[2]، فغدا الناس، ففتح الله ﷻ حصن «الصعب بن معاذ»، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه. ولما وصل المسلمون إلى آخر حصن وهو حصن (الوَطِيح والسَّلالم) حاصره رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة، ثم خرج منه «مرحب» اليهودي، وقد جمع سلاحه، وهو يرتجز ويقول:

قد علمت خيبرُ أني مَرْحَبُ ... شاكي السلاح بطل مُجَرَّبُ
أطعن أحياناً وحيناً أضربُ ... إذا الليوث أقْبَلَتْ تحرَّبُ[3]
كان حمايَ لَلْحِمَى لا يُقْرَبُ

(١) ابن هشام (٣/٣٥٨).
(٢) الوَدَك: الدسم.
(٣) تَحَرَّبُ: أقبلت مغضبة.

وهو يقول: هل من مبارز؟ فقال رسول الله ﷺ: (من لهذا؟) فقام «محمد بن مسلمة» فقال: أنا يا رسول الله! أنا والله! الموتور الثائر قتلوا أخي بالأمس قال: (فقم إليه، اللَّهم! أعنه عليه).

فلما أن دنا كل واحد منهما من صاحبه، دخلت بينهما شجرة عمرية[١] من شجر العُشَر[٢]، فجعل أحدهما يلوذ بها من صاحبه، فكلما لاذَ بها اقتطع بسيفه منها ما دونه منها، حتى برز كل منهما لصاحبه، وصارت بينهما كالرجل القائم، مابينهما فَنَنٌ[٣]، ثم حمل «مرحبٌ» على «محمد» فضربه، فاتَّقاه بالدرقة[٤]، فوقع سيفه فيها، فَعَضَّتْ به فأمسكته، وضربه، «محمد بن مسلمة» حتى قتله.

ثم خرج بعد «مرحبٍ» أخوه «ياسر» يرتجز، يقول:

قد علمت خيبر أني ياسرُ ... شاكي السلاح بطلُ مغاورُ
إذا الليوث أقبلت تُبادرُ ... وأحجمت عن صولتي المَغاورُ
إنَّ حِمايَ فيه موت حاضرُ

قال محمد بن إسحاق، عن هشام بن عروة، أن «الزبير بن العَوَّام» خرج إلى «ياسر»، فقالت أمه «صفية بنت عبد المطلب»: أَيَقْتُلُ ابني؟ يا رسول الله! قال: (بل ابنك يَقْتُلُه إن شاء الله)، فخرج الزبير وهو يقول:

قد علمت خيبر أني زَبَّارْ ... قرم لقوم غير نِكْسٍ فرَّارْ
ابْنُ حُماة المجد وابنُ الأخْيارْ ... ياسرُ لا يَغْرُرْكَ جمع الكفارْ
فجمعهم مثل السراب الجرَّار

ثم التقيا، فقتله الزبير.

---

(١) عُمْرِيَّة: قديمة.
(٢) العُشَر: شجر أملس ضعيف العود.
(٣) فَنن: غصن.
(٤) الدَّرقة: الترس.

وفي رواية أخرى أن الذي قتل «مرحباً» اليهودي، «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه وقد جاء في حديث عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ ربما أخذته الشقيقة، فيلبث اليوم واليومين لا يخرج، فلما نزل رسول الله ﷺ خيبر، أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس، وإن «أبا بكر» أخذ راية رسول الله ﷺ، ثم نهض فقاتل قتالاً شديداً، ثم رجع، فأخذها «عمر بن الخطاب» فقاتل قتالاً شديداً هو أشد من القتال الأول، ثم رجع، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فقال: (أما والله! لأُعْطِينَّها غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يأخذها عَنْوَةً)، قال: وليس ثَمَّ «عليٌّ» عليه السلام، فتطاولت لها قريش، ورجا كل واحد منهم أن يكون صاحب ذلك، فأصبح، فجاء «عليٌّ» عليه السلام، على بعير له، حتى أناخ قريباً من خِباء رسول الله ﷺ، وهو أرمد، وقد عصب عينيه بشقةِ بُرْدٍ قطري، فقال رسول الله ﷺ: (مالك؟) قال: رمِدْتُ بعدُ، فقال رسول الله ﷺ: (ادنُ مني) فدنا، فتفل في عينيه، فما وجعها حتى مضى لسبيله، ثم أعطاه الراية، فنهض بها معه وعليه حلة أرجوان حمراء قد أخْرَجَّ خملها[1]، فأتى مدينة خيبر، وخرج «مرحب» صاحب الحصن، وعليه مغفر معصفر يمانٍ، وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه، وهو يرتجز ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحبُ ... شاكي السلاح بطلٌ مُجَرَّبُ

فقال «عليٌّ» عليه السلام:

أنا الذي سمتني أمي حَيْدَرَهْ ... أكيلكم بالسيف كيل السنَدَرهْ[2]

ليثٌ بناباتٍ شديدٌ قسوَرَهْ

فاختلفا ضربتين، فبدره «عليٌّ» فضربه، فقَدَّ الحجر والمغفر ورأسه، حتى وقع في الأضراس، وأخذ المدينة.

---

(١) الخمل: الهدب. واخْرَجَّ: خالط لونه لون آخر.

(٢) السندرة: مكيال كبير.

إنه «عليٌّ»، وما أدراك من عليٌّ؟ فارس الهيجاء، وفتى المعامع، ومُجَدِّل الأبطال، وقاهر الشجعان، والمشهود له برباطة الجأش، وقوة الجنان، وهاهو ذا أبو رافع مولى رسول الله ﷺ يطلعنا على مشهد شهد فيه أبا الحسنين ﷺ، قال: خرجنا مع «علي بن أبي طالب» حين بعثه رسول الله ﷺ برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله، فقاتلهم، فضربه رجل من اليهود، فطرح ترسه من يده، فتناول «عليٌّ» ﷺ باباً كان عند الحصن، فتترَّس به عن نفسه، فلم يزل في يده، وهو يقاتل، حتى فتح الله عليه، ثمَّ ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفرٍ سبعة أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه.

فهل علمت الآن! أيَّ فتًى ـ أبو الحسنين ـ كان؟ لقد كان يقاتل بقوة الإيمان، وما أحوجنا لِمثله في هذا الزمان! ليدفع عنا ما نحن فيه من شقاءٍ وبؤسٍ وهوان، والله ـ وحده ـ المستعان.

قال ابن إسحاق[1]: وحدثني بريدة بن سفيان الأسلمي، عن بعض رجال بني سلمة، عن أبي اليَسَر: كعب بن عمرو، قال: والله! إنا لمع رسول الله ﷺ بخيبر ذات عشية، إذ أقبلت غنم لرجل من يهود تريد حصنهم، ونحن محاصروهم، فقال رسول الله ﷺ: (من رجل يطعمنا من هذه الغنم؟) قال أبو اليَسَر: فقلت: أنا يا رسول الله! قال: (فافعل) قال: فخرجت أشتد مثل الظليم، فلما نظر إليَّ رسول الله ﷺ مُوَلِّياً، قال: (اللَّهم! أمتعنا به)، قال: فأدركت الغنم وقد دخلت أولاها الحِصْن، فأخذت شاتين من أخراها، فاحتضنتهما تحت يديَّ، ثم أقبلت بهما أشتدُّ، كأنه ليس معي شيء، حتى ألقيتهما عند رسول الله ﷺ، فذبحوهما، فأكلوهما، فكان «أبو اليَسَر» من آخر أصحاب رسول الله ﷺ هلاكاً، فكان إذا حدث هذا الحديث بكى، ثم قال: أُمْتِعوا بي، لعمري! حتى كنت من آخرهم هلكاً.

(١) ابن هشام (٣/٣٦٥).

ولما فتح[1] رسول الله ﷺ (القموص) حصن ابن أبي الحُقَيْق، أُتِيَ رسول الله ﷺ بصفية بنت حُيَيٍّ بن أخطب، وبأخرى معها، فمر بهما «بلال»، وهو الذي جاء بهما، على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفية صاحت وصَكَّتْ وجهها، وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ، قال: (أعزبوا عني هذه الشيطانة)، وأمر بصفية، فحيزت خلفه، وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ قد اصطفاها لنفسه، فقال رسول الله ﷺ لبلال، حين رأى بتلك اليهودية ما رأى: (أنزعت منك الرحمة؟ يا بلال! حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما). وكانت «صفية» قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيْق، أن قمراً وقع في حجرها، فعرضت رؤياها على زوجها، فقال: ما هذا إلا أنك تمنَّيْن ملك الحجاز «محمداً»، فلطم وجهها لطمة اخضرَّت عينها منها، فأُتِيَ بها رسول الله ﷺ وبها أثر منه، فسألها: (ما هو؟) فأخبرته هذا الخبر. وأُتِيَ رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيْق ـ وكان عنده كنز بني النضير ـ فسأله فجحد أن يكون يعلم مكانه، فأُتيَ رسول الله ﷺ برجل من يهود، فقال لرسول الله ﷺ: إني قد رأيت «كنانة» يطيف بهذه الخربة كل غداة، فقال رسول الله ﷺ لكنانة: (أرأيت إن وجدناه عندك، أأقتلك؟) قال: نعم، فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله ما بقي، فأبى أن يؤديه، فأمر به رسول الله ﷺ «الزبير بن العوام» فقال: (عذِّبْه حتى تستأصل ما عنده) فكان «الزبير» يقدح بزنده في صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى «محمد بن مسلمة» فضرب عنقه بأخيه «محمود بن مسلمة».

وحاصر رسول الله ﷺ «أهل خيبر» في حصنهم، الوطيح والسلام، حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يُسَيِّرهم ويحقن دماءهم، ففعل، وكان رسول الله ﷺ قد حاز الحصون كلها بعد الأموال، إلا ماكان من ذينك

(١) انظر الطبري (١٤/ ٣).

الحصنين، فلما سمع أهل فدك بما صنعوا طلبوا من رسول الله ﷺ المعاملة بالمثل، ففعل، ثم سأل أهل خيبر رسول الله ﷺ أن يعاملهم بالأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم، وأعمر لها، فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، وصالحه أهل فَدَك على مثل ذلك فكانت خيبر فيئاً للمسلمين، وكانت فَدَكُ خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يجلبوا[1] عليها بخيل ولا ركاب.

وقدمت له «زينب بنت الحارث» امرأة «سلام بن مِشْكَم» شاة مصلية مسمومة فتناول الذارع ولاك منه مضغة ثم لفظها لأنه لم يسغها، وقال: (إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم) ثم دعا بها، فاعترفت، فتجاوز عنها، وكان «بشر بن البراء بن معرور» قد أكل مع النبي ﷺ فأساغها فمات من تلك الأكلة. وقال رسول الله ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، وقد جاءت أم بشر تعوده: (يا أم بشر! إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت مع ابنك بخيبر. وكان المسلمون يرون أن رسول الله ﷺ قد مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر، انصرف إلى وادي القرى، فحاصر أهله ليالي، ثم قفل راجعاً إلى المدينة محفوفاً بعناية الله تعالى.

قال ابن إسحاق[2]: ولما أعرس رسول الله ﷺ بصفية، بخيبر أو ببعض الطريق، وكانت التي جَمَّلتها لرسول الله ﷺ، وَمَشَّطَتْها، وأصلحت من أمرها «أُم سُلَيْم بنت ملحان»، أم أنس بن مالك، فبات بها رسول الله ﷺ في قبة له، وبات «أبو أيوب خالد بن زيد» أخو بني النجار، متوشحاً سيفه، يحرس رسول الله ﷺ ويطيف بالقبة، حتى أصبح رسول الله ﷺ، فلما رأى مكانه قال: (مالك؟ يا أبا أيوب! قال: يا رسول الله! خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلتَ أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد

(١) وفي رواية أخرى: لم يوجف: أي لم يُجتَمَعْ ولم يُسْرَعْ.
(٢) انظر ابن هشام (٣/٣٦٩).

بكفر، فخفتها عليك، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: (اللهم! احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني).

وكان «عبد الله بن رواحة» يخرص على اليهود ثمار خيبر، ويعدل عليهم في الخرص، فإن قالوا له: تعديت علينا، أجابهم: إن شئتم فلكم، وأن شئتم فلنا، فيقولون: بهذا قامت السماوات والأرض.

ولما كان الغدر والعدوان من شيم اليهود وأخلاقهم وطباعهم، فقد عدوا على رجل من الأنصار في عهد «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، ثم عدوا على ابنه «عبد الله بن عمر» رضي الله عنهما، ففدعوا[1] يديه، فقام «عمر» في الناس خطيباً فقال: (أيها الناس! إن رسول الله ﷺ كان عامل يهود خيبر على أنا نخرجهم إذا شئنا، وقد عدوا على «عبد الله بن عمر» ففدعوا يديه كما بلغكم، مع عدوهم على الأنصاري قبله، لا نشك أنهم أصحابه، ليس لنا هناك عدو غيرهم، فمن كان له مال بخيبر فليلحق به، فإني مخرج يهود)، فأخرجهم، فهل من «عمر» اليوم يخرجهم من مسرى خاتم المرسلين، ويزرع الأمن والسلام في ربوع فلسطين؟.

(١) الفدع: عوج في المفاصل.